حال المخطوطات
في المكتبات الخاصة بشمال الصحراء
دراسة ميدانية

عمر لقمان سليمان بوعصبانة*
أستاذ بجامعة وهران

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

تمهيد :

يكفي ما خطته يد الإنسان فخرا أن يقسم المولى عز وجل به، وأن يكون ضمن المخلوقات المشرفة التي أقسم بها، حيث قال بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم:

نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١

وأن ينوه بآلة الكتابة حيث قال بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

---

* بالتنسيق بين وزارة الاتصال و الثقافة – مديرية الثقافة – ولاية غرداية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي و مخبر المخطوطات (جامعة الجزائر)، مخبر المخطوطات (جامعة وهران)

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم – العلق: (1 – 5)

ويكفي المسلمين شرفا أن يكون أولى الاهتمامات تمهيدا لنسخ القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرتها. أمر النبي الأعظم محمد (ص) بعد غزوة بدر أسرى بدر تعليم المسلمين القراءة والكتابة.

وإن سنام ما خطته يد البشرية جمعاء، كتاب الله عز وجل في صدر الإسلام خاصة وقد ضمن الله تبارك وتعالى حفظه إذ قال عز من قائل: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) "الحجر:9 ". ويكفي الجزائر كلها شرفا أن يعقد مثل هذا الملتقى الوطني وفاء لسلفها، واعترافا برسوخ قدمها في العلم.

وإن محاضرتنا هذه قد تعد لبنة في جدار صرح الثقافة الإسلامية إن وفقنا الله تبارك وتعالى فيها، فهي وصفية تحسيسية لوقت نحن أحوج فيه إلى تحسيس واستنفار أكثر مما نحن أحوج فيه إلى ترداد زفرات واستنكار. فكي ألبي طلب مخبر المخطوطات بالمساهمة بمحاضرة في الموضوع أراني عاجزا لأمرين:

- عاجزا عن رد الطلب الجميل.
- وعاجزا عن أن أفي بحق المقصد النبيل.

ومـــا زرنـــاه من مكتبات في جنوب الجزائر على طرق القوافل، من ملوكه، المطارفة أدرار وفـــي وســـطها: غـــرداية، ملـــيكة، بني يزجن، العطف، بنورة، بريان، القرارة. وفي شرقها: وارجلان، عجاجـــة، نقوسة، تماسين، المغير، قد يعد كافيا كي يكون نماذج لأغلب خزاناتنا بشمال صحراء الجزائر، وما آلت إليه المخطوطات، مع الظروف الصحراوية، وما تتسم به من صفات.

ولاشـــك أن الـــنوايا الحســـنة تحدونـــا، وأن حبنا لتراثنا الإسلامي يفوق التصور. لكن طريقة الوصول إلى الحل تحتاج إلى ترو وحكمة بالغة واسترداد ما ضاع من خارج وطننا يحتاج إلى بدء سريع، ونفـــس طويل وبذل مال، ووقفة ورجال لو استنطقنا المخطوطات الموجودة الآن نفسها لكشفت عن أعداد هائلة من المخطوطات لم يبق منها إلا العنوان، وقد ضاعت في عهدها فضلا عما ضاع بعدها.

لقد ضيع المسلمون بأيديهم مكتبات بكاملها. فمن أغار على غيره، شتت أنصاره و غور آباره، واجتث أشجاره، وأحرق الأخضر واليابس، غير عابئ بوعيد الله، وغير قابل اختلافه في رأيه وفتواه.

كما تلاعبت أيدي المستشرقين بالتراث الإسلامي فهربت الكثير، قصد استلاب حضاري، فأخفت أروع المؤلفات في مكتباتها، وأحكمت عليها بالإرتاج، في أماكن لا ترى النور ولا يستفيد منها إلا

من سمحوا له بذلك بعد أن يجعلوا له عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. كما زادت العوامل الطبيعية في الصحراء من إيذائها للموروث الحضاري فلم يبق منه إلا النزر اليسير، نحن أحوج ما نكون إلى الوفاء به، وحبه والتعلق به، فضلا أن نزيد له تلفا، ولأهله إجحافا.

ولكي نتكلم عن حال المخطوط في شمال صحرائنا يستحسن أن نتكلم عن أهم العوامل المتسببة في إتلافه، أو حفظه وبقائه. وهي:

1 – المؤثرات الطبيعية.

2 – المؤثرات البشرية.

1) العوامل الطبيعية المؤثرة في المخطوطات بشمال صحراء الجزائر

أ) الحرارة والبرودة:

تتعرض المنطقة لتقلبات جوية بالغة التباين بين حرارتها وبرودتها فالمنطقة (شمال الصحراء الجزائرية) يقع فيها التباين الشاسع بين حرارة وبرودة اليوم الواحد فضلا عن صيفها وشتائها. فالمدى الحراري فيها واسع جدا، وهذا ما يؤدي إلى تقصف الصخور وتفتتها وتهيئتها للنقل بواسطة الرياح، وهذا العامل يسمى في علم المناخ بـــ (التجوية)، المؤثر خاصة على المشبكات (أو الكونغلومرات) كما يؤثر أيضا على الصخور المتجانسة.فإذا كان التباين يفعل فعله في الصخور، فهو يؤثر كذلك على جميع ما هو كائن تحت تأثيره، فالحرارة الشديدة تؤدي إلى جفاف الجلد والأوراق وتيبسها الشديد، وبالتالي يؤدي هذا إلى تقصفها، فتصير الورقة اللينة مثل الجريد اليابس، ما أن يحاول أحد طي أحد أطرافها إلا وتقصف وتساقطت أجزاء.

ب) النور:

كما أن نور الشمس يؤدي إلى زوال الكتابة وأخذ حبرها، وإضفاء الصفرة على الأوراق البيضاء، وهذا ما نراه الآن حتى على الواجهات الزجاجية لمتاجر الصحراء، أو الطلاء المعرض للشمس مثل طلاء السيارات مثلا.

ولقد شاهدنا في زيارتنا لمكتبة سانت بترسبورغ (لينينغراد سابقا) في روسيا، حيث خزانات المخطوطات قد وضعت في أماكن معزولة، وعلى أبوابها الزجاج الواقي، والأستار الملونة بالأبيض من الخارج، والأسود من الداخل رغم برودة المكان. وحيث إن المنطقة تتعرض ليوم طويل في الصيف قد يصل إلى عشرين ساعة، والنور موجود ولو بعد غروب الشمس في فصل الصيف، فإنه من الضروري اتخاذ مثل هذا الإجراء حيث خطر النور هناك ظاهر للعيان وحاد. وهذه المكتبة تضم مخطوطات إسلامية آلت إليها من تركة الدولة العثمانية بعد سقوطها.

فإذا لا حظنا الوصايا التي يتركها هؤلاء العلماء نعرف مدى تعلقهم وحبهم لكتبهم وخزاناتهم فعلى سبيل المثال لا الحصر قد أوصى أحدهم على أن لا تفرق كتبه بين الورثة، لأنه يعلم أن في تفرقها ضياع وتلف، فبعض الورثة قد يكون السبب في إهمالها لكونه جاهلا، أو حدث السن أو امرأة تحت رجل لا يقدر ما آل إليها من أبيها. ولذا يستحسن أن تبقى عند أعلم الورثة مجملة، ويمكن للبقية الاستفادة منها عند الضرورة.

كما أن بعضهم أوصى بعرجون نخلة وقفنا على المخطوط يبقي ريعه للمحافظة عليه وتجليده وما يمكن أن يحتاجه.

أما الجاهل: فهو ذلك الإنسان الذي يحكم عليه حظه بمسؤولية ثقيلة عليه، فيجد في مجموعة الكتب عبئا لا يمكن أن يتخلص منه إلا بمواراته عن الأنظار، وهو أيضا يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أن يدسه في التراب.

فيجعلها مرة في صناديق عادة ما تكون قديمة، ترجع إلى أيام تقسيم التركة، وقد يجعلها في زنابيل أو أكياس، ويرمي بها فوق الخزانات و الأدهى هو ذلك الإنسان الذي يتضايق منها فيرميها في بئر أو يحرقها. ولعل هذا النوع مع شيوع الثقافة قد نقص أو زال.

ب – العامل العاطفي (الحب والكره):

هذا الجانب يشترك فيه العالم والجاهل، وقد يكون هذا مندرجا تحت المؤثر الأول أو نتيجة عنه. فحب الإنسان لكتاب بعينه قد يكون لشيء وجده فيه يؤدي إلى التعلق به إلى حد إخفائه ضنا به فإذا كان المخطوط نفيسا أخفاه صاحبه، إلى أن يؤدي هذا الإخفاء إلى ظهور علامات التلف عليه.

أما إذا كرهه فقد يتركه عرضة للضياع فيتركه لأولاده الصغار يتعلمون عليه أصنافا من الرسوم والتشطيب والتمزيق.

ج – العامل النفسي (الخوف والأمن):

يعد الخوف أهم عامل على الإطلاق لإخفاء المخطوطات عن الأنظار وهذا ما لمسناه في زيارتنا لمالكي خزانات آثروا أن يخفوها في دور مهجورة بين الكثبان الرملية، فالخوف من ذهابها من بين أيديهم له أسبابه التاريخية.

فلقد ضاعت كثير من الخزانات بسبب الفتن الهوجاء، التي أتت على الأخضر واليابس فالتاريخ يذكر كيف تعامل التتار في القديم مع أنفس المخطوطات في بغداد ورموا بها في الأنهار.

وكيف أحرق العبيديون مكتبة المعصومة بتاهرت سنة 296 هـ.

وكيف هدم ابن غانية الميورقي مدينة سدراتة بكاملها بما فيها الآثار المعمارية الرائعة وما فيها من النفائس المخطوطة سنة 626 هـ.

وكيف تعامل الإسبان مع المسلمين بعد سنة 904 هـ / 1499 م،[3] وكيف حرقوا أكثر من مليون مخطوط في ساحة باب الرملة بمدينة غرناطة، حتى أدى ذلك ببعض المسلمين إلى بناء أسوار عليها وسط دورهم. وكيف تعامل الاستعمار مع الجزائريين وحرق المكتبة الوطنية الجزائرية قبل مغادرته إلى الأبد.

كما أن أصحاب المكتبات قد عانوا من السلطات العسكرية إبان الاستعمار، فقد تعسفوا، واستخدموا مختلف أساليب التخويف لقهر الناس.

فقد تحايل بعض الأوروبيين المنبثين في هذه المناطق حينما نزلت طلائع الجيش إلى الصحراء فرأت أن أهم شيء لمعرفة الجزائريين وفرقهم وقبائلهم ولهجاتهم هي الكتب التاريخية واللغوية.

فأخذ " ماسكراي" من المنطقة كتاب سير أبي زكرياء وترجمه سنة 1878.وتعلم باسيه اللغة البربرية وكتب عنها.

وحينما أخفى الأهالي ما يمتلكونه، بل هددوا بعض الأوروبيين بالقتل إن امتدت أياديهم إلى الكتب فهموا أن التخويف لا يجدي نفعا فحولوا الخطة إلى بث الأمن وإشاعة التقرب والتزلف.

فـ " زقمونت سموجورفسكي "(Smogorzewski Zygmunt) لم ينل ما ناله إلا بعد أن تظاهر باحترام الناس وحبهم، وأبدي رغبته الملحة لخدمة العلم، فنال مبتغاه وحمل معه صناديق عديدة من المخطوطات إلى " لفوف" (Iwow) ببولونيا – بلده الأم – وذلك في سنة 1913 – 1926. وعقد ندوة مشهودة في جامعة الجزائر شرح فيها كل أعماله.[4]

أما " ريني باسيه " فلم يستطع الدخول إلى مكتبة الزاوية التيجانية إلا بعد أن أتى مرفوقا برسالة من الوالي العام بالجزائر، موجهة إلى شيخ الطريقة التيجانية، السيد محمد الصغير بن الحاج على

---

[3] د.عبد الرحمن علي الحجي: محاكم التفتيش الفاشمة وأساليبها شركة الشهاب الجزائر، ص 27 – 31.

[4] ألقى زقمونت سموجورفسكي أستاذ بجامعة ليوبولد (Leopold) ببولونيا محاضرة في القاعة الكبرى بجامعة الجزائر. ينظر: Revue Africaine. 1926 n° 67.p242.

التيجاني شيخ الطريقة التيجانية بتماسين وذلك بتاريخ 26 فيفري 1885 طالبا منه أن يفتح له خزانة المخطوطات حتى يقتبس منها ما يحتاج إليه.[5]

كما تنكر بعضهم في زي عربي لإيهام الناس مثل ما فعل الرحالة " جون ليتيو" وصار يرتحل في الصحراء عبر طرق القوافل خمسين سنة، وجمع ما جمعه من المخطوطات. هذا ما جعلنا نتتبع خطواته إلى حيث يختلي بين الجبال في فرنسا. ولكن حالت دوننا الأعذار الواهية، فلم نظفر به، ولا الإباضي يتناول تاريخ سدراته ووارجلان في القرون الهجرية الأولى. كما تحايل أحد الآباء البيض وأخذ كتاب الأنساب من مسجد " حادور بوارجلان وهكذا فهم الغرب أن الخبز والدواء في يد مقابل العقيدة والتراث من جهة أخرى.

د – العامل المادي (الغنى والفقر)

يلعب الغنى والفقر دورا بارزا في المحافظة على المخطوط من عدمه فالفقر قد يكون سببا في تسرب كثير من المخطوطات إلى وراء البحر طعما في عملة صعبة أو بسمة باهتة أو رضى من إنسان يعتقد فيه القوة والكمال. فكم من حفيد ضيع موروثه من أجداده بحفنة مال من سائح. كما أن الغنى صار في الوقت الحاضر أهم عامل لتدارك الوضع لصاحب المكتبة نفسه.

وقد نبالغ إذا عزونا ضياع المخطوطات إلى عامل البيع، ونسينا أن الفقر الظاهر في القرى الصحراوية انعكس ليس على أحوال أصحاب المكتبات فقط بل حتى على محيطهم فلقد رأينا– كما أسلفنا – دورا مهدمة السقوف، تحتوي على مجلدات ضخمة ومكدسة، لا الدولة انتبهت لذلك ومنحت أصحاب المكتبات دعما ماديا معتبرا لإعادة ترميم هذه المكتبات ولا أهلها أولوها عنايتهم، وقدموها على بعض حاجياتهم.

كما أن هناك مكتبات في أريغ سقطت عليها أمطار طوفانية. ولعدم وجود عازل في السطوح، ولكون المنازل من طابق واحد، تسربت المياه عبر الشقوق إلى الكتب والمخطوطات فبادر أهلها إلى إنقاذها مشكورين، ولكن يقول المثل: " ما كل مرة تسلم الجرة ".

كلمة لابد منها:

لا يفوتنا في هذه المحاضرة أن نقف وقفة شكر وتقدير لبعض الجمعيات التي سخرت كل ما لديها من الإمكانيات لتحقيق المخطوطات وطبعها، أو قامت بفهرسة المكتبات بطريقة حديثة أخرجتها من الأقباء إلى الأضواء، ومن شك الإخفاء إلى وضوح التعاون والإفادة.

---

[5] Basset Renè.Les manuscrits arabes des bibliothèques des Zaouias de Ain Madhi et Temacin de Ouargla et de Adjadja Bulletin de correspondance Africaine .Vol.3 1885,p211 – 265.

وعلى رأس هذه الجمعيات في هذه المنطقة جمعية التراث بالقرارة التي يرأسها فضيلة الشيخ عدون شريفي سعيد أمد الله في أنفاسه وقد جاوز القرن ولا يزال في اهتمامه البالغ بهذا الأمر، وهو جدير بالحفاوة والتكريم.

كما أن جمعية أبي إسحاق بغرداية قامت بمجهود كبير، فصورت المخطوطات وحفظتها على الميكروفيلم أو بالآلة الرقمية. أضف إلى ذلك كل ولايات الجنوب وعلى رأسها السادة الولاة ومديرو الثقافة الذين بذلوا كل جهودهم للاهتمام بالتراث من كافة جوانبه.

بعض الملاحظات العامة:

ما يمكن أن نلاحظه من خلال هذه الوقفات التأملية أن الرطوبة الموجودة في أريغ ووارجلان غير موجودة بحدة في منطقة وادي ميزاب الجافة، والرمال الغامرة لمكتبات منطقة أدرار وملوكة والمطارفة ومنطقة وادي سوف غير موجودة كذلك في المناطق الصخرية بميزاب.

ولحسن الحظ مكتبات قرى ميزاب لا توجد بها هذه العوامل المتلفة للمخطوطات، ولكن دون أن ينتبه الكثير من أهاليها لذلك حتى يزيدوا في الحفاظ عليها، ودون أن ينتبه أهل المناطق الأخرى حتى يزيدوا احتياطا ويمكن أن نلاحظ أن الأمر ليس عملية صيانة بقدر ما هو تحسيس بالوقاية من سد للمنافذ وإحكام للأبواب وإسدال للأستار العازلة للنور الساطع، ووضع للخزانات في أماكن ذات مناخ معتدل لا تفاوت فيه الحرارة بشكل ملحوظ فلا هي أماكن علوية معرضة للحرارة ولا هي دهاليز في المناطق المعرضة للرطوبة.

ومن المؤسف حقا أن نجد مكتبات أسقفها مكشوفة تماما، أو منهارة في مناطق تغمرها الرمال. فوضعها المبكي يمكن أن يغير بمصاريف أقل من التي بنيت بها المكتبة، وذلك بتغير اتجاه أبوابها ونوافذها وإحكام غلق خزاناتها. كما أن استدبار الرياح الغربية الرملية،والشمالية الباردة وعزل طابقها الأرضي بطابق علوي، يمكن أن يعين على حفظها وتضييق الأقواس وفتحها على شكل يسمح بوجود النور بشكل كاف عند الشروق وبشكل محدد عند الزوال، وبشكل كاف عند الغروب يعين على وجود جو رائق للمخطوطات، وهذا ما نلاحظه في العمارة القديمة بميزاب فقد استفاد أهلها من الطبيعة القاسية، كما التزموا بالضوابط الشرعية الموجودة في كتاب أصول الأرضين لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائبي النفوسي المتوفى سنة 504 هـ / 1110 م. وكذا مختصر العمارة للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش رحمه الله المتوفى سنة 1332 هـ / 1914 م.

ومن أطرف ما يحضرني بالتأمل، وليس ضروريا أن أكون صائبا في الأمر، كيف كان وضع الكهف المذكور في القرآن وما فيه الخصائص التي أبقت على نضارة الشباب الذين آووا إليه.

انظر إلى قوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

صدق الله العظيم

سورة الكهف – الآية 17

فالملاحظ أن الديار القديمة في ميزاب قد اهتمت بهذا الجانب مراعاة للضوابط الشرعية، فهي مستدبرة للرياح الدائمة، ومفتوحة على النور الضروري في عوارض سطوحها، ومضيقة للنور الساطع في أقواسها وسواريها المتقاربة، والشمس تدخل إليها عبر العوارض الواسعة عند الشروق، وتحصر بالسواري الضيقة عند وجود الشمس في كبد السماء، ثم تتلقى أشعة الغروب عبر العوارض، ونجد أغلى ما يحفظ فيها يكون في الطابق الأرضي في فجوة منها، مثل: خوابي التمر وخزانات الكتب.

نماذج لبعض المكتبات وحال المخطوطات بها :

قبل أن أشرع في عرض أحوال بعض المكتبات والمخطوطات بها أراني مضطرا لوضع أرقام لها دون ذكر أسماء أصحابها، فعلى المتمرس في الموضوع أن يعرف صاحبها من بعض القرائن التي تركتها، وذلك لإشباع رغبة الحريصين إجمالا ومغفلا أسماء أصحابها، حتى لا أزيد للأبواب إقفالا.مع أنني لا أنسى كرم كثير منهم وحسن ضيافتهم، وفتح أبواب مكتباتهم واستقبالهم وحسن تعاملهم معي.

1 – إن أنس فإنني لا أنسى مكتبة زرتها مع صاحبها بعد أن قطعنا مسافة طويلة بين كثبان الرمال، فتراءت لنا قرية مهجورة تماما بأسوارها وبواباتها وديارها، خلت أنني في مدينة بومبي، أو هركلانوم، اللتين طغى عليهما بركان فيزوف، فهجرتا.

أزحنا الرمال من أمام باب الدار المقصودة الموصدة، فدلفنا إلى غرفة قد انهار سقفها، وبها خزانات حديدية ملآى بالمخطوطات. وأغلب المخطوطات علاها الغبار، وأكلتها الأرضة، فصارت غرابيل ينفذ منها نور الشمس، ما أن تفتح مخطوطا إلا وتساقط على حجرك طحين أبيض من بقايا ما أنفت الأرضة من أكله.

سألت صاحب المكتبة عن السبب في مبالغته وإيغاله في الإخفاء، ومن الأحسن له أن يرى أصحاب الاختصاص حتى يصوروا نسخا منها قبل أن تضيع إلى الأبد، فأجابني بنص هذه العبارة: " إننا

قد أحسنا الظن بالبعض، ولكنهم لم يرجعوا ما أخذوه إلى حد اليوم، ولا نعرف مآله ". فلم أجد الجواب الشافي، وقد التمست له بعض الأعذار.

2 – مكتبة أخرى في نفس المنطقة، استقبلني صاحبها أحسن استقبال، وفتح لي مكتبته على مصراعيها وحينما تصفحت جميع المخطوطات في خزانتين مليئتين، ارتاح إلى كلامي، واطمأن إلى تعاملي معه، فصار يتردد على بالمخطوط والمخطوطين من داخل بيته، فتعجبت من فعله، وسألته عن عدم وضعها مع الأخرى، فقال: أنا آتي بها من غرفة نومي الخاصة، ولا يطلع عليها إلا أن وثقت به، فلقد أخذ مني بعض الوجهاء من أصحاب المناصب العليا بعض المخطوطات على سبيل الاطلاع، فلم يرجعوها وهذه أحسن طريقة لتفادي ذلك الإحراج.

3 – مكتبة أخرى آلت إلى وارث عامي لا يعرف قيمتها، وجدتها في صندوق قديم، وبعد الاطلاع عليها سألته عن أهميتها، فوجدته لا يعرف عنها شيئا. فعرفته بقيمة بعضها، ولعلها نادرة، فشكر لي ذلك... وبعد رجوعي إليها مرة أخرى اعتذر لي عن عدم إمكان فتحها، وقد صارت غالية، وهي بحاجة إلى خزانات وتنظيم.

4 – سيد معتبر عنده مكتبة شددنا إليها الرحال، وبذلنا في سبيل الوصول إليها الأموال، ورغم الحفاوة في الاستقبال فإنه تعلل بعدم فتح خزانته لا في الحال ولا في المآل.

س – ما السبب في عدم فتح الخزانة لطلاب العلم؟

ج – قررت عدم فتحها لأي أحد.

ـ نرجوكم إن حجبتم عنا الكتب فأعطوا لنا القائمة فقط.

ـ لا يا سيدي الكريم، ولا حتى القائمة الآن إلى أن يحين الوقت اللائق لفتحها.
فقلت في نفسي: شكرا لكم سيدي وشكرا للفرنسي رينيه باسيه (René Basset) الذي ترك قائمة مفصلة لها !

5 – سيد معتبر بعد مدة زمنية من المحاولات، ومعرفة بأنه ورث مخطوطات من والده العالم كان جوده ببعض الأوراق التي لا يفهم ولا يعرف أصلها، لأنها كانت في متناول الصبيان، يأخذون منها بعض الفوائد!

6 – كان مالك المكتبة قاضيا، والقرية التي عاش فيها قد هجرت بكاملها إلى بنايات جديدة محاذية لها. وبعد الذهاب مع الدليل من القرية الجديدة إلى القرية المهجورة، تسورنا البيت، فنزلنا من فتحة في سقفه إلى غرفة مليئة بأوراق المخطوطات كأنها أوراق الخريف. أدخلنا بعض الكراريس في كيس، وحاولنا لم بعضها إلى بعض على شكل مخطوطات في الخط والحجم، فأرجعناها إلى صاحبها دون الاهتداء إلى هوية المخطوطات، لأنها غير مكتملة أساسا.

7 – طالبنا الدخول إلى مكتبة معتبرة، وبعد البحث عن القيم والمفتاح دخلناها، مكتبة منظمة معروفة لكن العائق من الانتفاع بها انشغال القيم بأمور أخرى، فهي مغلقة إلى أن يحين الوقت اللائق.

8 – مكتبة مفهرسة، بها من المخطوطات الشيء الكثير، يفتحها صاحبها في ساعات قليلة من اليوم.

9 – مكتبة لها وريث شرعي واحد ذكر ، لكنه مغترب، ولا يرضى الاقتراب من داره ومخطوطاته، أعرف بما تحتويها، الألمان وبعض علماء الدول الشقيقة المجاورة.

10 – مكتبة ضخمة، أغلب ما فيها من تأليف صاحبها وقف لها دارا، اتخذت لها خزانات وقيم لها أوقات يومية يشغلها الذكور في وقت، والإناث في وقت آخر يستفيد منها القاصي والداني.

11 – مكتبات فتحت حديثا تضم بعض النسخ الخطية مفهرسة بشكل جيدا جدا يستفيد من محتوياتها كل من قصدها للبحث.

هذه نماذج من مكتبات يمكن للبعض منا أن يعرف مكانها وصاحبها، وهذا لا يهم الآن إنما الأهم هو دراسة الواقع، وإيجاد الحلول الناجعة لهذه النماذج وغيرها. ولا يتأتى ذلك إلا بدراسة ما أعاق الاستغلال، وإيجاد الضمانات المريحة لصاحب المخطوط المتوجس خيفة من التعسف والسطو.

وفي الأخير، فقد تبينت لنا من خلال هذه الزيارات ملاحظات كثيرة تحتاج إلى دراسة متأنية ونفس طويل قد نقسمها إلى شقين:

- الشق الأول خاص بمالكي المكتبات.
- الشق الثاني خاص بالزائرين من الطلبة والعلماء.

أولا – قد يتداول الثروة الحضارية (المخطوطات) أبناء لا يعرفون قيمتها ويأنفون من إظهارها، والاعتناء بها فترى في زوايا المنزل بعيدة عن أماكن البريق، فتتآكل الأوراق بالرطوبة، ويعلوها الغبار وتعشش فيها شتى القوارض والحشرات، فتحول الأوراق إلى غرابيل منخورة. فإذا شمت الرطوبة كما رأينا تمازجت فيها ألوان الحبر، أما إذا تعرضت للرياح والشمس جفت أوراقها، وتقصفت مثل أوراق الشجر اليابس.

هكذا يختلط الحب والكره، فحب التملك يوصل إلى الضن بكل شيء وكرهه يفضي إلى إهماله، فلا صاحبها استغل الموجود، ولا طالب العلم تنسم عبير الماضي السحيق. ومع هذا فإن من صفات المسلم المتخلق التماس الأعذار. ولا يمكن أن نزيل الخوف عن صاحب المكتبة إلا إذا أشعنا في قلبه الأمل، وفي باله الراحة، على أن غرضنا الاطلاع فقط وأخذ المعلومات، وأننا نخرج كما دخلنا

بأوراق وأقلام ومحفظة مفتوحة، مع أن هذا لا يشفي غليل الباحثين، إذ يمكن أن يستعمل صاحب المكتبة كل الوسائل الحديثة التي تضمن بقاء مخطوطة إن وفرت له تلك الأسباب من الجهات المعنية.

ثانيا – جانب الزائرين: لعل المتسبب الأول في غلق المكتبات في وجوه الباحثين الجادين، الذين سبقوا إليها في يوم ما، فلم يشرفوا بتعاملهم إما استخفافا أو غفلة فمنهم من أخفى مخطوطا، ومنهم من بتر كراريس كاملة من داخله.

وأرى أن هذا الجانب الحساس يحتاج إلى دراسة نفسية تاريخية يمكن أن يخصص لها المخبران يوما دراسيا تحلل فيه الدوافع والسلوك، وتقترح فيه الحلول الناجعة. واعتذر إن تسببت في إزعاج أي من الأطراف إن هي إلا أنة معاناة في بداية طريق طويل، ولكن آن الأوان لأن نتفاعل، ونقول: إن الأبواب صارت تفتح مع وجود المخلصين والمتقفين والجمعيات الرائدة في الميدان.

وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

صدق الله العظيم

التوبة: 105

المراجع:

1 – جمعية التراث: دراسات وأبحاث عن الإباضية " بيبليوغرافيا " 1409 هـ / 1989م.

2 – د. عبد الرحمن علي الحجي: محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها، شركة الشهاب، الجزائر، د.ت.

3 – رسالة الوالي العام لولاية الجزائر الطريقة التيجانية. Bulletin de correspondance Africaine.

4 – عمر لقمان سليمان بوعصبانة: تراثنا والمستشرقون، ألفية الجزائر، (محاضرة مرقونة).

5 – عمر لقمان سليمان بوعصبانة:واقع المخطوطات الإسلامية في البلاد العربية والأوروبية مخبر المخطوطات، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، (محاضرة مرقونة)، 29 ربيع الأول 1421 هـ / 2 جويلية 2000م.

6 – محمد بدر الدين فكري: دراسة تحليلية للطرق العلمية لعلاج وترميم المخطوطات والوثائق قسم الترميم، سلطنة عمان، (مرقون)، د.ت.

7- Basset René .Les manuscrits arabes des bibliothèques des zaouïas de Ain Madhi et Temacin de Ouargla et de Adjadja : Bulletin de correspondance Africaine.Vol.3.1885.

8- Revue Africaine. 1926.n°678